Paul M. Love, Jr,
The Ottoman Ibadis of Cairo, A History

Cambridge, Cambridge University Press,
2024, xvi-230 p.,
ISBN : 978-1-009-25428-1, hardback

Keywords: Ibadis, Cairo, Ottomans, trade, Egyptian society

Mots-clés : ibadites, Le Caire, Ottomans, commerce, société égyptienne

الكلمات المفتاحية: الإباضية، القاهرة، العثمانيون، التجارة، المجتمع المصري

يمكن للقارئ أن يتجول بين صفحات هذا الكتاب للتعرف على الإباضيين ودورهم في القاهرة العثمانية، وهو موضوع دقيق يتعلق بفئة مهمة كان لها دورٌ بالغ الأهمية في الفترة من بداية القرن ١١ هـ/ ١٧ م وحتى أوائل القرن ١٤ هـ/ ٢٠ م من تاريخ مصر. وقد ركز على طبيعة العلاقة بين إباضية عمان وإباضية القاهرة من خلال علاقات متعددة تباينت بين علاقات تجارية وأخرى اجتماعية وثقافية، وقد ظهر أثر ذلك جليًا من خلال الكتب العمانية التي صارت أكثر تداولًا في القاهرة خلال تلك الفترة. كذلك، تتضح من خلال فصول الكتاب طبيعة العلاقة الدينية للإباضين بوصفهم أقلية بالقاهرة وكيفية تكوينهم لمجتمع ديني صغير تركز حول وكالة الجاموس، التي تأسست في عام ١٠٦٣ هـ/ ١٦٢٦ م، وكانت بمثابة دارٍ للوقف الإباضي لطلبة العلم والمشايخ الإباضيين من دول شمال إفريقيا، وبالتحديد من جربة في تونس، ووادي مزاب في الجزائر، وجبل نفوسة في ليبيا. وكان لهذه الوكالة الفضل بلا منازع في الحفاظ على الموروث الإباضي المخطوط إلى يومنا هذا، كما كانت بمثابة منارة ثقافية ومكتبة للفكر الإباضي بالقرب من جامع أحمد بن طولون، و تعد دليلًا دامغًا على اندماج الإباضيين في المجتمع القاهري؛ وللأسف فقد هدمت خلال القرن العشرين ونقل العديد من مقتنياتها لاحقًا إلى عمان.

وينقسم الكتاب إلى ستة فصول تسبقها مقدمة عن طبيعة المجتمع القاهري الاباضي وجذوره المغاربية وكذلك عن طبيعة العلاقة بينه وبين السلطة العثمانية بمصر إبان تلك الفترة وتطورها وتعقيداتها. الفصل الأول بعنوان «الحي الطولوني»، وقد ركز بشكل ممتع على الجاليات المغربية التي سكنت حي طولون وطبيعة العلاقات بينها، ودعم ذلك بمجموعة من الخرائط لهذا الحي، تبين أن الإباضيين عاشوا في نفس الأماكن، واستخدموا نفس المحاكم، وعملوا في نفس شبكات التجارة مثل غيرهم من المغاربة في مصر والبحر الأبيض المتوسط، وكانت هناك مجموعة من العوامل جذبتهم إلى القاهرة إذ جاء بعضهم إليها كتجار، وآخرون كطلاب أو علماء، وآخرون كحجاج.

وجاء الفصل الثاني بعنوان «زقاق الكبش»، الذي يقع بمنطقة قلعة الكبش بحي طولون، حيث تركز الإباضيون بالقاهرة، وتناول هذا الفصل بشكل سلس طبيعة الحياة الاجتماعية المتشابكة لهم، وركز بشكل خاص على شخصيتين أساسيتين: الأولى هي التاجر الجربي عبد العزيز البحار الذي ينسب إليه تأسيس وكالة الجاموس بالقاهرة في عام ١٠٦٣ هـ/ ١٦٢٦ م، والشخصية الثانية هي أبو عبد الله محمد السدويكشي المتوفى في عام ١٠٨٠ هـ/ ١٦٧٠ م، الذي يعد من أشهر أعلام الإباضية، إذ إنه درس بالأزهر إثر وصوله للقاهرة ثم عمل به أستاذا وناسخًا للمخطوطات، ويمكن أن نستشف من القصص التي أوردها الكتاب عنه أدوارَه الجليلة في المجتمع الإباضي بالقاهرة خلال القرن ١١ هـ/ ١٧ م.

أما الفصل الثالث فقد حمل عنوان «المكتبة الإباضية بالقاهرة»، وبذل مؤلفه جهدًا طيبًا في تتبع تطور الفكر والإنتاج الثقافي الإباضيين، من خلال الاعتماد على المخطوطات التي نسخت في وكالة الجاموس، وتبين من خلالها عدم تعارض الدراسة والتعليم بالوكالة مع ما يتم تدريسه بالجامع الأزهر إبان تلك الفترة.

وعنون المؤلف الفصلَ الرابع «قرن جديد»، وهو يشير بذلك إلى القرن ١٣ هـ/ ١٩ م والتحولات الاجتماعية والثقافية العنيفة التي شهدها المجتمع المصري خلاله، مع التركيز على شخصية رئيسية في المجتمع الإباضي، سعيد بن عيسى الباروني المتوفى عام ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٥ م، وهو عالم من جبل نفوسة بليبيا، عاش في الوكالة وأسس المكتبة البارونية، وأثر بشكل كبير في تطور وازدهار الفكر والثقافة في المجتمع الإباضي خلال هذا القرن.

أما الفصل الخامس فعنوانُه «الدبلوماسي والمطبعة»، وركز على حياة شخصيتين. الأولى هي سعيد بن قاسم الشماخي الذي كان طالبًا في الأزهر وأستاذا في وكالة الجاموس، حتى عين وكيلاً لباي تونس بالقاهرة، مما مكنه من إقامة علاقات مع خديوي مصر. الشخصية الثانية هي محمد بن يوسف الباروني، وكان له دور كبير في المطبعة البارونية التي كانت بجوار الجامع الأزهر، وطبعت الكثير من الإنتاج الثقافي الإباضي بالقاهرة.

وختم الكتاب بالفصل السادس الذي حمل عنوان «سالم بن يعقوب»، الذي عاش في القرن ١٤ هـ/ ٢٠ م، وتوفي في عام ١٩٩١ م، وقد رمزت وفاته إلى أفول نجم المجتمع الإباضي بالقاهرة.

وبصفة عامة، فإن هذا الكتاب يمثل رحلة ممتعة حول الإباضيين في القاهرة العثمانية، ونستشف منه دورهم الثقافي في إنتاج ونسخ المخطوطات بل وطبعها، مع التركيز على طبيعة علاقاتهم المتشابكة، سواء بمواطنهم الأصلية في شمال إفريقيا أو بعمان، موطن الإباضية، مرورًا بعلاقتهم الطيبة بالسلطة الحاكمة في مصر.

أحمد الشوكي
جامعة عين شمس
المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (Ifao)

BCAI 40 () : , recensé par
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net